السُّنَنُ الكونيـة وأَثَـرُهـا في نـهضـة الأُمَّـة الإسلامية

فضيلـة الدكتـور
إسماعيل محمد حنفي الحاج

السُّنَنُ الكونية وأَثَرُها في نهضة الأُمَّة الإسلامية

د. إسماعيل محمد حنفي الحاج(H)

µ:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، محمد بن عبد الله، وعلى آلهِ وصحبِهِ ومن والاه.

إنَّ الله جلَّت قدرته الذي أوجد الكون من عدم ثم استخلف الإنسان، وكرَّمه وكلَّفه؛ أودع في هذا الكون سُنناً ثابتة ونواميس لا تتغيَّر ولا تتحول {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً }[1]. ثم جعلها مرئيةً يسهل الوصول إليها والتعرُّف عليها في أغلب الأحيان {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ }[2]، فربط بين السُّنَن وبين العمل، ثم العاقبة، دلالةً على أنَّ ما حصل لأولئك يحصل لغيرهم إنْ ساروا على سننهم.

(H) أستاذ مشارك وعميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية . جامعة إفريقيا العالمية (الخرطوم . السُّودان).

(1) سورة فاطر، الآية (43).

(2) سورة آل عمران، (137).

إنَّ المقصود هنا أنْ نتفاعل مع الكون ونستمد منه القوة التي أمر الله بإعدادها،ما دام أنَّالله سبحانه هو الذي أمرنا بأنْ نأخذ من الكون ما يتحقق به النفع والخير، على سنن اللهوالمراد كذلك أنْ تكون حركة الأمة . وهي تسعى للنهوض من جديد .حركةً منضبطة متوائمة مع الكون، حركة تكون وفق خطط علمية، محكمة، مدروسة، يتم فيها الانتقال من مرحلة إلى التي تليها بانضباط وأناة بحيث يتم تلافي أيّ أزمة قد تحدث، حتى لا تُفاجأ الأمة بل تكون قد أعدّت لكل حدث حديثاً، وبذا تساهم في التغيير لكل البشرية إلى الأفضل، ولا يكون حالها هو التعامل مع ردود الأفعال بدون ضابط ولا معيار ثابت.

في هذا البحث أتناول الموضوع من خلال تمهيد وأربعة مباحث:

أمَّا التمهيد: فأتوقف فيه قليلاً عند مصطلح "السُّنَن الكونية"، وبيان أهميتها، ثم مصطلح "الأُمَّة" في مدلوله وأهميته، ثم "النهضة"، مع وقفة مع آيات القرآن الكريم في تناولها لكلمتي "سُنَّة" و"أُمَّة"، والإشارات المتعلقة بالنهوض.

المبحث الأول: سُنَّة التوازن في الكون:

والمراد بذلك قيام هذا الكون . بقدرة الله تعالى . على ميزان دقيق {وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ}(1). وهو التوازن في أمور الكون في

(1) سورة الرحمن، الآية (7).

مقاديرها وحركاتها وسكناتها بما يؤدّي إلى بقائه وتماسكه إلى أنْ يأتي اليوم الذي تختل فيه تلك الموازين بإرادته سبحانه.

وهذا التوازن في الكون يسير موازياً له توازن في حركة العباد ونشاطهم بما لا يؤدّي إلى الخلل. ومن هنا نجد سنة التدافع التي وضعها الله تعالى ليدفع بها ظلم وطغيان بعض عباده، ربَّما بظلمٍ أقل منه، أو بعدلٍ بما يؤدّي إلى التداول الذي فيه التجديد والحيوية وبعث الأمل في إمكانية وقوع التغيير نحو الأفضل، وعودة الأمور إلى نصابها بتحقيق الخلافة ونهوض الأمة {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ}(1).

المبحث الثاني: سُنَّة بقاء التمكين أو زواله:

فالتمكين قد يحصل لأيّ عبدٍ من عباد الله تعالى إذا أخذ بالأسباب ثم وافق ذلك مشيئة الله. ولكن سنة الله الثابتة أنَّ بقاء التمكين له مقومات وشروط، وإلا زال. {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ}(2)، {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}(3).

(1) سورة البقرة، الآية (251).

(2) سورة الحج، الآية (41).

(3) سورة آل عمران، الآية (140).

وقضت مشيئته سبحانه عدم استمرار الدولة الظالمة الفاسدة وإنْ كانت قوية أو مسلمة، رأفة بعباده ولأنه لا يحب الفساد.

وهذا فيه أمل للمؤمنين بأنَّ النهوض ممكن لو تم الأخذ بالأسباب والتوجه إلى الله تعالى،وأنَّ البغي والفساد مهما علا فإنه لن يدوم.

المبحث الثالث: سُنَّة مآلات الأفعال أو أثر الأعمال على الأحوال:

وأقصد بذلك مسؤولية الناس عن الأوضاع التي هم عليها سلباً أو إيجاباً {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}[1].

فالثابت كوناً أنَّ لكل فعلٍ رد فعل، وثمرات الأعمال معروفة في عموم الحياة، فمن أراد بلوغ هدفٍ أو تحقيق مكسبٍ يعلم أنه لا بد من خطوات عملية يقوم بها.

وإنَّ التغيير لا يكون إلاَّ بعد التغيير خيراً أو شراً {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[2]. فلا مجال للكسل والخمول والأماني بلا عطاء وجهد.

المبحث الرابع: حتمية الصراع بين الخير والشر:

(1) سورة الشورى، الآية (30).

(2) سورة الرعد، الآية (11).

فما دام أنهما موجودان فلا بد من اشتباك بينهما، وقصة إبليس مع آدم υ تشير إلى ذلك، وكذا قصة ابني آدم، ثم ما لاقاه أنبياء الله جميعاً من العداوة.

فهنا سنة كونية تتعلق بصراعٍ ومغالبةٍ بين الخير والشر، والنافع والضار، والطيب والخبيث. ثم فيما يتعلق بالأمة المسلمة أخبر الله تعالى عن هذا الصراع بـ: {وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ}(1).

وأخبر عن عُلوِّ الباطل، ولكنه علو مؤقت لا فائدة فيه، وستكون الدائرة للخير فقال: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ}(2).

سنة كونية تنبئ عن هذه الحقيقة التي ذكرناها بشأن الأمة من كون الحق سينتصر في النهاية، كما قال الإمام ابن قتيبة . رحمه الله . عن الآية السابقة: هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ للحق والباطل، يقول: الباطل وإنْ ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه، فإنَّ الله سيمحقه ويبطله، ويجعل العاقبة للحق وأهله، ومثلُ ذلك مطرٌ جود أسالَ الأودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً، أي: عالياً على الماء كما يعلو الباطل تارةً على الحق، وكذلك المعادن إذا دخلت الكير يُوقد عليها فيعلوها مثل زبد الماء، ثم قال: {فَأَمَّا

(1) سورة البقرة، الآية (217).

(2) سورة الرعد، الآية (17).

الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً }، أي: يلقيه الماء عنه فيتعلق بأصول الشجر وجنبات الوادي، وكذلك حيث الفلز يقذفه الكير، فهذا مثل الباطل و{أَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ } فهو مثل الحق"(1).أ.هـ.

خاتمة البحث:

أُبرز فيها أهمَّا توصلتُ إليه من نتائج، ثم أرصد مجموعة من التوصيات المحدَّدة في الموضوع.

سائلاً ربِّي سبحانه التوفيق والسَّداد وصلى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمد.

(1) ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تحقيق سيد صقر، ص 326.

M:

لا بُدَّ بدايةً من التعرُّف على بعض المصطلحات المهمة المستخدمة في هذا البحث والتي تُشَكِّل العنوان، وهي:

≅السُّنَن الكونية :

يُراد بها: القوانين التي أودعها الله في هذا الكون وأخضعه لها بما فيه من مخلوقات، لتكون تلك السُّنَن حاكمةً لكل صغيرة وكبيرة.

وتتصف تلك السُّنَن بمجموعة من الصفات التي تعطيها صفة القانون الرياضي الصارم، فهي من جهة ثابتةٌ لا تتبدَّل ولا تتحوَّل، ومن جهةٍ ثانيةٍ مطّردة، تتكرَّر على الوتيرة[1] ذاتها كلما توافرت شروطها وانتفت الموانع التي تحول دون بلوغها.

وتلك السُّنَن الكونية عامة تنطبق على كل ما في هذا الكون دون تمييز، ونحن البشر جزء من هذا الكون، نخضع لها كبقية الكائنات. وهذا يستلزم فهم هذه السُّنَن والتعامل معها بحكمة بحيث يتم استغلالها واستثمارها لتكون خادمةً للغاية الأساسية التي خلق الله الإنسان من أجلها في هذه الدنيا، وهي عبادته سبحانه وجعل كلمته هي العليا.

وهذا يؤكد أهمية هذه السُّنَن، وإحسان التعامل معها ومخاطر إغفالها أو مخالفتها. يقول الدكتور/ محمد أمحزون: لقد وجّه القرآن الكريم

(1) انظر: كنعان، د. أحمد محمد: أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في خلقه، (بتصرف).

المسلمين نحو الوعي بعالم الشهادة، فحثهم على النظر والتدبُّر والاستقراء للكشف عن قوانين المادة وسنن الاجتماع، كما نبَّه إلى أهمية التعرُّف على السُّنَن التاريخية، والإفادة من ذلك في الاعتبار وبناء الحضارة وكيفية المحافظة عليها من السقوط، وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذه السُّنَن فذكرها نصاً في بعض الأحيان، ولم يذكرها أحياناً أخرى نصاً؛ وإنَّما فُهمت من النَّص دلالةً وفحوى، وذكرها تارةً مضافة إلى الله . تباركت وتقدست أسماؤه ،. وذكرها تارةً أخرى مضافةً إلى أقوام.

وللإشارة، فإنَّ هذه السُّنَن تعمل مجتمعةً ومتسلسلة، فيكون في حصيلتها في الحياة البشرية ما هو كائن بقدر الله . عز وجل ،. وقد نبَّه الله جلَّ ثناؤه المسلمين إلى أنَّ هذه السُّنَن صارمة، تتَّسم بالاطِّراد والشمول والثبات كما في قوله تعالى: { فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً }(1).

فينبغي إذاً معرفتها، وتدبُّرها، واستيعابها، والاستفادة منها، لقوله تعالى: { يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }(2).

ومن خلال السُّنَن في كتاب الله تعالى، وسنن رسوله ε؛ نفهم التاريخ على حقيقته، ونعرف عوامل البناء، والأمن، والاستقرار، والتقدم، وعوامل

(1) سورة فاطر، الآية (43).

(2) سورة النساء، الآية (26).

الهدم، والخوف، والانحطاط والتخلّف... ومن هنا تأتي أهمية ربط عمل الدُّعاة بالجهد والعمل وفق السُّنَن التي لا تحابي فرداً على حساب فردٍ آخر، أو مجتمعاً على حساب مجتمع آخر"[1]، "فالنتائج التي قد يتطلّع إليها على وجه الأرض أكثرُ المؤمنين وأشدُّهم ورعاً وتقوى سوف يجنيها أكثر الكافرين كفراً وأشدُّهم فِسقاً وفجوراً، إذا وافق المقدمات الصحيحة المؤدية إليها، وربط الأسباب بمسبِّباتها، بينما ينتظرها المؤمن ارتكازاً على إيمانه وحده واعتماداً على ورعه وتقواه، دون أنْ يطلبها من مقدِّماتها التي خلقها الله عزَّ وجل طريقاً إليها، فأنَّى يُستجاب له"؟[2].

"ومرجع ذلك إلى أنَّ السُّنَن الربانية في الحياة البشرية؛ دقيقة كل الدقة، منتظمةٌ أشد الانتظام، لا تحيد ولا تميل، لا تجامل ولا تحابي، ولا تتأثر بالأمانيّ، وإنَّما بالأعمال"[3].

≅ الأُمَّـــــــــة :

بتأمل شيء من آيات القرآن يتضح لنا المدلول؛ قال الله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ

(1) أمحزون، د. محمد: مقال بعنوان: "العلم بالسنن الربانية"، مجلة البيان، العدد 115، يوليو 1997م، ص 50.

(2) المصري، محمد عبد الهادي: أهل السنة والجماعة.. معالم الانطلاقة الكبرى، دار طيبة، الرياض، ط/4، 1988م، ص 202.

(3) أمحزون، د. محمد: مقال (سابق) بمجلة البيان، ص 50.

فَاعْبُدُونِ }(1)، وقال سبحانه: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ }(2)، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}(3).

ذكر ابن كثير في معنى "أمة واحدة": دينكم واحد، وسنتكم سنة واحدة. ووافقه الشوكاني، وأضاف: "وقيل: إن هذه مِلَّتكم مِلةٌ واحدة، وهي ملة الإسلام"(4).

إنَّها العقيدة التي تجمع وتوحِّد، فتتكوَّن أُمَّة الإسلام تحت هذه الراية فقط، وهي الراية الوحيدة القادرة على جمع المسلمين فلا يقدر عليهم عدو. ولذا يُعدُّ التركيز على مفهوم الأمَّة، أمراً أساسياً للانطلاق والخروج من دائرة الوهن بسبب تلك الغثائية التي ذكرها النبي ε في الحديث: (يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ

---

(1) سورة الأنبياء، الآية (92).

(2) سورة المؤمنون، الآية (52).

(3) سورة البقرة، الآية (143).

(4) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، 1981م، 195/3. والشوكاني: فتح القدير، دار الفكر، بيروت، 1983م، 425/3.

الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: (حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)[1].

ومِن ثَمَّ فالنهضة التي نتحدث عنها هنا هي اليقظة والانتباه من حالة الوهن، والشروع في العودة إلى الأصل، وهو القوة والتي تكون بنبذ أسباب ذلك الضعف والفشل، وقد أشار القرآن الكريم إلى شيء من ذلك: {وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}[2]، {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ...}[3].

إنَّ الناظر إلى حياة المسلمين اليوم يدرك أنَّ خللاً قد أصاب فكرهم، ومن ثَمَّ انعكس على سلوكهم في حياتهم، فكانت السمة الغالبة هي ذاك الوهن الذي ذكره رسول الله ﷺ. وحقيقته إجمالاً: حُبُّ الدُّنيا وكراهية الموت، أي: التشبُّث بالحياة الدُّنيا مهما كانت نتائج ذلك التشبُّث من تكالبٍ على الدُّنيا، وتنازع، وتفرُّق، وضغائن، واقتتال.

ومن المعروف أنَّ حُبَّ الدُّنيا والإعراض عن الآخرة وَلَّدَ تلك الأسباب المفصلة للوهن، وهي التنازع والتفرُّق والعداوات... إلخ.

---

(1) أبو داود: سنن أبي داود، كتاب الملاحم، برقم 3745، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، 111/4. ومصنف ابن أبي شيبة، برقم 37247، مكتبة الرشد، الرياض، ط/1، 1409هـ، 463/4.

(2) سورة الأنفال، الآية (46).

(3) سورة آل عمران، الآية (103).

ولو انتبهالمسلمون إلى أنَّهذه الدُّنيا التي غرَّت الكثيرين منهم، قد أودع الله فيها سنناً ثابتة مضطردة؛ لو أخذوا بها لوصلوا إلى ما يريدون من فلاح في الدُّنيا والآخرة، ولقلَّ إعجابهم بالكافر المتفوِّق، لأنه في الواقع إنَّما عِرفَ السُّنَن وتعامل معها، وكل من فعل ذلك تفوَّق.

المبحث الأول: سُنَّة التَّوازُن في الكون

"إذا أمعنَّا النظر في الآيات الكونية التي اشتمل عليها القرآن الكريم، تضلح لنا أنَّ كُلَّ شيء في هذا الكون خُلِقَ بقَدَرٍ معلومٍ ودِقةٍ متناهية، وحكمةٍ مدبَّرة، قال تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}[1]. وقال تعالى: {مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ}[2].

وإنَّ هذا الكون المعجِز في بنائه، المذهِل في اتساعه، الرَّائع في حركتِه واتزانه هذا الاتزان الدقيق، لو اختلَّ قيد شعرة في أمرٍ من أموره لانفرط عقده وانهار كل ما فيه ومَنْ فيه.

ولمَّا كان هذا الكون منذ ملايين السنين يسير على نفس السُّنَن، فإنَّ الذي يصونه مِمَّا قد يتعرض له من كوارث؛ هو العناية الإلهية التي نحيا في ظلها وعطفها ورعايتها، والتي لو حُجبت عنَّا طرفة عين أو أقل من ذلك لهلكنا، وهلك كل مَن معنا"[3].

إنَّ الله سبحانه خلق هذا الكون بما فيه ومَنْ فيه بميزان دقيق: {وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ}[4]. وهو توازن في المقادير والحركات

---

(1) سورة القمر، الآية (49).

(2) سورة الملك، الآية (3).

(3) شحاتة، د. عبد الله: آيات الله في الكون، نشر نهضة مصر، 2001م، ص 38.

(4) سورة الرحمن، الآية (7).

والسكنات بما يحفظ التماسك ويضمن الاستقرار ليكون الاستمرار في تعمير الأرض بوسطة هذا الإنسان تعميراً بالمادة وبالعبادة، وما دام الأمر كذلك فلا بُدَّ من علاقةٍ وثيقة بين هذا الكون وبين الإنسان، وبين التكليف، ولذا كان الأمر الكوني مرتبطاً بالأمر الشرعي: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}[(1)]. الخلق إنَّما يكون بالأمر الكوني: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[(2)]، وأما الأمر المذكور في الآية فهو الأمر الشرعي، فكأنَّ المراد أنَّ الذي يأمر فيحدث التكوُّن بأمره يجب أنْ يأمر فيحدث الانصياع لأمره، إذ كيف يُقر له بالخلق ولا يُقر له بالطاعة؟![(3)].

إذاً التوازن بين سنن الكون وحركة العباد ونشاطهم في الحياة كذلك موجود. **ومن الأمثلة على ذلك:**

سُنَّة التدافع:

وهي تتجلى في قوله تعالى: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}[(4)]. وفي قوله تعالى: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ

(1) سور الأعراف، الآية (54).

(2) سورة يس، الآية (82).

(3) انظر: الشوكاني: فتح القدير، 211/2.

(4) سورة البقرة، الآية (251).

وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }[1].

والمراد أنَّ الله يدفع العباد بعضهم ببعض لمصلحة عظيمة، وهي عدم حدوث الخلل في التوازن بأنْ يطغى بعض العباد على الآخرين فيقع الفساد، ومن نماذجه هدم بيوت العبادة.. ولكن وجود التدافع يدفع تلك المفاسد. أليس لو طغى شيءمن أمور الكون فزاد عن حدِّه يحصل الخلل والفساد؟

ومن الأمثلة على ذلك: لو كانت الأرض تبعد عن الشمس ضعف بُعدها الحالي لنقصت كمية الحرارة التي تصلنا إلى ربع كميتها الحالية، ولقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقتٍ أطول، ولتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء فتجمّدت الكائنات الحية على سطح الأرض.

ولو اقتربت الأرض من الشمس إلى نصف المسافة التي تفصلهما الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض من الشمس أربعة أمثال ما تلقاه منها الآن مما يحول دون وجود حياة نباتية أو حيوانية، ولتضاعفت سرعة الأرض حول الشمس، وانعدمت الفصول واستحالت الحياة[2].

(1) سورة الحج، الآية (40).

(2) النجار، أ.د. زغلول: محاضرة: "الإنسان والكون"، ضمن محاضرات الموسم الثقافي لعام 72–1973م، إصدار حكومة أبو ظبي.

وقد ينظر الإنسان أحياناً في بعض أمور الكون فيحسب أنْ لو كان كذا من الأشياء أكثر لكان أحسن، أو ربما يتساءل: لماذا لا يكون الشيء الفلاني أكثر مما هو عليه، أو العكس. لماذا لا يكون الناس كلهم أصحّاء أو أغنياء مثلاً؟

ونجد أنَّ الله تعالى يوضح ذلك: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ}[1].

إذاً لو حدث بسط الرزق بلا مقدار مناسب، وإنْ كان ذلك يظهر أنه خير، لكن النتيجة ستكون سوءاً وفساداً؛ لأنه لا يكفي إرادة الخير وإنَّما كيف يحصل الخير، وكما قالوا: "كمْ من مُريدٍ للخير ليس ببالغه".

والله سبحانه هنا يخبرنا أنه خبير بعباده بصير بهم، ولذا فإنَّ زيادة شيء أكثر من حدِّه بالنسبة لهم لا يصلحهم بل يفسدهم، فإنْ كان الأمر كذلك؛ فهل يغفل إنسان عاقل عن مثل هذه السُّنَّة من سنن الكون في هذا المثال وهو التوازن في الرزق؟ إنَّ مَن يتغافل عن كون أنَّ الله تعالى هو الخالق وهو الرازق، ولا يرزق إلاّ بما علِم من حقيقة عبادِه؛ فيريد هذا الإنسان . وهو العبد المخلوق أنْ يجلب الخير للإنسانية بزعمه، ولكن وفق رؤيته المحدودة للأمور فيشرِّع لتحسين معاش الناس واقتصادهم دون

(1) سورة الشورى، الآيتان (27–28).

نظر إلى سنن الله، ستكون النتيجة هي: {بَغْيًا فِي الأَرْضِ} والنماذج كثيرة في عالم اليوم.

ولقد أقرّ هذا التوازن في إنزال الرزق من الله تعالى، يجب أنْ يرتبط به توازن في التعامل مع هذا الرزق من قِبَل العباد أنفسهم، فلا يكون هناك إفراط منهم ولا تفريط في كل ما يتعلق به، مثل:

[أ] مقدار ما يأكله أو يشربه الإنسان من الطعام أو الشراب:

قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}(1). فالأكل والشرب خير، ولكن الزيادة فيهما عن الحد المعقول تجعلهما شراً على صاحبهما.

ولذا ورد في الحديث أنّ الرسول ε قال: (بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ)(2).

[ب] وفي ما ينفق الإنسان:

طُلِبَ منه أنْ يكون متوازناً في صرفه على نفسه وأهله وعلى الآخرين، قال تعالى: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}(3)، فالمطلوب هو التقدير السليم في الإنفاق وفي الإمساك.

(1) سورة الأعراف، الآية (31).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، برقم 2381.

(3) سورة الإسراء، الآية (29).

ولذا جاءت الآية بعدها تذكِّر بمنهج المولى تعالى في رزق عباده:
إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[1].
فإنْ كان سبحانه بعباده خبيراً بصيراً ، فلا بدّ للعباد أنْ يأخذوا المنهج . في تعاملهم مع بعضهم منه سبحانه وإلاّ ضلّوا واختلت أمورهم.

وقد بيَّن سبحانه أنَّ الزيادة على الحد المعقول في البذل والعطاء والإنفاق تُعدُّ تبذيراً، وهو ممقوت: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}[2].

كيف يستفاد من هذه السُّنَّة الكونية؟

يتم ذلك بالسير في الكون والتأمل في خلق الله تعالى، ومعرفة المزيد عن سننه الأخرى، وفهم تلك السُّنن، ولا يتم ذلك في هذا الزمان بغير بحث ودراسة، لأنَّ الزمان متغير ويحتاج إلى مسايرة، فكثير مِمّا يكتشف يظهر فيه التوازن بصورة واضحة.

إنَّ التوازن في الكون يتطلب أنْ يفهم المسلمون أنَّ كل عملٍ يُراد القيام به لابدّ أنْ يكون مدروساً بعناية، مخططاً له، حتى يُعطَى كلُّ جانبٍ أو خطوةٍ مقدارَه المحدد من العناية، ولا يُركَّز على شيء ويُهمَل آخر.

(1) سورة الإسراء، الآية (30).

(2) سورة الإسراء، الآيتان (26–27).

ويستفاد من هذه السُّنَّة الكونية كذلك في ترتيب الأولويات، فما دام أنَّ الكون فيه هذا التوازن الدقيق، فإنَّ ترتيب الاهتمام بالأمور من قِبَلِ الإنسان كذلك يحتاج إلى ضبط ووزن، وذلك أنَّ التوازن لا يعني التساوي؛ وإنَّما أنْ يأخذ كل شيء قَدْرَه المناسب بالنظر إلى بقية الأشياء، فيُقدَّم ما يستحق التقديم ويؤخر ما يستحق التأخير، ومن هنا جاء ما يُعرف بـ "فقه الموازنات أو ترتيب الأولويات".

وكذلك التدرُّج فالتدرُّج سنة كونية، حيث لم يخلق الله تعالى الكون دفعةً واحدة. وهو قادر على ذلك وكذلك خلق الإنسان أطواراً، طوراً بعد طور، ونمو الكائنات بالتدرُّج وليس مرة واحدة.

وأنزل القرآن منجّماً، أي مفرّقاً متدرِّج النزول: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ}[1].

ومن هذه السُّنَّة الكونية نستفيد أنَّ الأمة لتنهض ينبغي أنْ تتأنّى وترسم طريق الوصول إلى الهدف لتصل إليه بالتدرُّج، حتى تجد التجاوب والقبول، وتتواءم مع ما فطر الله الناس عليه من الميل إلى التيسير والتخفيف وعدم التعجُّل الذي تكون إفرازاته كثيرة بسبب عدم الإتقان.

---

(1) سورة الإسراء، الآية (106).

المبحث الثاني:سُنَّة بقاء التمكين أو زواله

سُنَّة الله في هذا الكون أنه قد يُمَكِّنُ مَنْ يشاء من عباده، والتمكين في حقيقته جعل الإنسان مهيمناً أو مالكاً للمكان، أيّ مكان أو مركز، صغيراً كان أو كبيراً. فهو من تسخير الكون للإنسان وتذليله له، فكأنَّ المراد أنَّ الكون أمامكم أيها العباد، سيروا فيه واسعوا، ومنكم من يصل إلى المراد من سعيه فيُمَكَّن بحسب جهده، وبمقتضى موافقة مشيئة الخالق سبحانه: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}(1).

ولذا؛ قد يحصل هذا للمؤمن ولغير المؤمن، فقد قال سبحانه عن عاد: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}(2).

وتُبْرِزُ لنا الآية كيف أنَّ الله تعالى يعدِل بين عباده، وسنته واحدة فيهم، حيث إنه ركّب فيهم أدوات الإدراك، وهُم يعيشون في كونٍ واحد له سنن ثابتة، وقد يصل كلٌّ منهم عن طريق تلك السُّنَن إلى القوة والتمكين، وقد يكون بعضهم أكثر قدرة "إمكانات" مثل: ثمود قوم صالح υ هؤلاء، فقد كانوا: {يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ}(3)، وقال لهم نبيُّهم:

(1) سورة التكوير، الآية (29).

(2) سورة الأحقاف، الآية (26).

(3) سورة الحجر، الآية (82).

تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} [1]، وكذلك: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} [2].

ولكن هذا كله يمكن أن يزول ليكون هباءً، إمَّا بسبب السُّنَّة الكونية الثابتة هنا، وهي عدم خلود شيء من مخلوقات الله تعالى، وأنه لا بُدَّ لكل أول من آخر: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} [3]، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [4]. أو بسبب السُّنَّة الشرعية في أنَّ المعاصي تُذهِب الخير والبركة، والآية التي تتكلم عن قوم هود υ توضح ذلك.. وكثير من الآيات توضح هذا، ومنه قوله سبحانه: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [5].

ولعلَّنا أدركنا من هذا ارتباط السُّنَّة الكونية بالسُّنَّة الشرعية، فالشيء يبقى مستقراً في مكانه ما دامت أسباب استقراره قائمة، ولكن يختل استقراره، وربما يزول إذا حدث شيء في الأسباب. وهذا فيما يتعلق

(1) سورة الشعراء، الآية (149).

(2) سورة الشعراء، الآيات (146-149).

(3) سورة القصص، الآية (88).

(4) سورة الرحمن، الآيتان (26-27).

(5) سورة الأنعام، الآية (6).

بالأسباب الكونية، وكذلك الأمر بالنسبة للأسباب الشرعية؛ فهي ثابتة في حصول الخير أو زواله.

ونصل في نهاية الأمر إلى أنَّ من سنن الله في هذا الكون: ارتباط الأسباب بالمسبِّبات، فقد قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ...}[1].

فكان الماء الذي أنزله الله سبباً للإنبات، والإنبات سبباً للحياة: {وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ}[2]، والله سبحانه قادرٌ على أنْ يفعل ما يشاء بدون الأسباب، ولكنه جعلها سنة كونية لعباده ليأخذوا بها من خلال علاقتهم بهذا الكون الذي يعيشون فيه. والمسلم يعلم أنَّ معرفة الأسباب والأخذ بها أمر مطلوب شرعاً، فهو يتزوج لينجب، ويسعى ليكسب، قال الإمام ابن حجر العسقلاني . رحمه الله .: والمراد بالتوكل اعتقاد ما دلَّت عليه هذه الآية: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا}[3]، وليس المراد به ترك التسبُّب والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين، لأن ذلك قد يجُرُّ إلى ضد ما يراه من التوكل. وقد سُئِلَ أحمد عن رجلٍ جلس في بيته أو في المسجد وقال: "لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي"!، فقال: هذا رجلٌ جهل العلم، فقد قال النبي ﷺ: (جُعِلَ

(1) سورة فصلّت، الآية (39).

(2) سورة البقرة، الآية (22).

(3) سورة هود، الآية (6).

رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي)[1]، وقال: (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا)[2]. فذكر أنَّها تغدو وتروح في طلب الرزق. قال: وكان الصحابة يتَّجِرون ويعملون في نخيلهم، والقدوة بهم" أ.هـ[3].

وقد قال العلماء: "الالتفات إلى الأسباب . أي: الاعتماد عليها فقط . شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنَّما التوكّل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع.

وبيان ذلك أنَّ الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا، لأنه ليس مستقلاً ، ولا

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في الرماح، برقم 1420، 1067/3.

(2) أخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد برقم 4154. وانظر: صحيح ابن حبان، برقم 730، تحقيق شُعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/2، 1993م، 509/2. وانظر: النيسابوري، الحاكم: المستدرك على الصحيحين، برقم 7894، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 1990م، 254/4.

(3) العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ، 306/11.

بِ ُدَّ له من شركاء وأضداد، ومع هذا كله، فإن لم يسخره مُسَبِّبُ الأسباب لم يُسخَّر" .أ.هـ[1].

ويشير الإمام الزرعي إلى ما ذُكر آنفاً، ثم يؤكد أهمية العناية بالأسباب وتوجيهها في تحقيق المطلوب، فيذكر منها: " تنزيلها منازلها، ومدافعة بعضها ببعض، وتسليط بعضها على بعض"[2].

فإنْ كان الأمر كذلك؛ فإنَّه لا يتحقق فوز بلا اجتهاد، ولا يصل إلى الهدف من لم يسلك السبل ويتبع الوسائل المناسبة، فلا ينصر الله تعالى مَن لم يأخذ بأسباب النصر التي أمر الله بها: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ}[3].

وكان منهج الأنبياء والمرسلين الأخذ بالأسباب، فهذا نوح υ يأخذ بالأسباب المؤدية إلى النجاة، فيصنع الفلك استجابةً لأمر الله تعالى، ويحمل من الكائنات من كل زوجين اثنين استجابةً كذلك لأمر الله، لأن الحياة إنما تستمر بأسبابها، ومن أهمها وجود الذكر والأنثى وتلاقحهما.

كما أمر الله تعالى نبيَّه موسى υ بالأخذ بالأسباب حين أوحى إليه أنْ يخرج بقومه من بني إسرائيل فراراً بدينه من فرعون: {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى

(1) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، نشر وتوزيع دار الكلمة الطيبة، اعتنى بها: مروان كجك، ط/1، 1995م، 142/8. وانظر: الحنفي، ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط/4، 1391هـ، ص 520–521.

(2) الزرعي، محمد بن أبي بكر أيوب: مدارج السالكين، 244/1.

(3) سورة الأنفال، الآية (60).

مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى}[1]، والعجيب أنَّ هذه الآية جمعت بين الأخذ بالأسباب . بتوجيه مُسبِّب الأسباب . وبين تدخُّل العناية الإلهية عند انقطاع الأسباب، حيث تُخرق العادات ويأتي الفرج بعد الشدَّة.

وهذا رسولنا محمد ε يستخدم كل الأسباب والوسائل المادية التي يهتدي إليها العقل البشري في هجرته من مكة إلى المدينة. وليس ذلك بسبب خوف على نفسه أو شك في إمكان وقوعه في قبضة المشركين؛ وإنَّما هو تشريع للأمة ليتأسَّى الناس به، فيأخذوا بالأسباب في كل أعمالهم، وأنَّ سُنَّة الله السبب إذا وُجد، وُجِد معه المُسببَّ ما لم يبطل الله ذلك،كما فعل في جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم υ، فعندها تكون هذه معجزة للنبي، وإنْ كانت لغيره فهي كرامة للصالحين واستدراج للطالحين من الناس، والدليل على ذلك أنه بعدما استنفد الأسباب المادية كلها كان مطمئناً، وصاحبه أبو بكر كان خائفاً، وكان من مقتضى اعتماده على تلك الاحتياطات أنْ يشعر بشيءٍ من الخوف والجزع، لقد كان كل ما فعله من الاحتياطات إذاً، وظيفة تشريعية قام بها، فلمَّا انتهى من أدائها، عاد قلبه مرتبطاً بالله عزَّ وجلَّ، معتمداً على حمايته وتوفيقه، ليعلم

(1) سورة طه، الآية (77).

المسلمون أنَّ الاعتماد في كل أمر، لا ينبغي أنْ يكون إلاَّ على الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ ذلك لا ينافي اتخاذ الأسباب والتدبير للوصول إلى الأهداف(1).

فالتمكين تصل إليه الأمة بمعرفة أسبابه الكونية والشرعية، فتأخذ بها، وقد يتحقق بإذن الله، ولكن بقاءه رهين بالمحافظة على تلك الأسباب، قال تعالى: { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ }(2).

إنَّ المسلمين مدعوون إلى التأمُّل في هذه السُّنَن الثابتة، والله سبحانه لا يحابي أحداً، فلا يكفي الاعتماد على الانتساب للإسلام بل لا بُدَّ من العمل وفق هذا الإسلام، وتجنب ما يمنع منه والله عزَّ وجلَّ رؤوف بعباده بحيث لا يديم تمكيناً لأحدٍ تجاوز الحدود وطغى وظلم العباد وآذاهم. ولذا قيل: إنَّ "الله يقيم الدولة العادلة وإنْ كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإنْ كانت مسلمة، ويُقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وقد قال النبي ε: (لَيْسَ ذَنْبٌ أَسْرَعَ عُقُوبَةً مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ)(3) فالباغي يُصرع في الدنيا وإنْ كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة، وذلك أنَّ العدل نظام كل شيء، فإذا أُقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإنْ لم

---

(1) انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان: فقه السيرة، دار الفكر، دمشق، ط/7، 1978م، ص 45. وانظر: رزق الله، د. مهدي: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، دار إمام الدعوة للنشر والتوزيع، الرياض، ط/2، سنة 1424هـ، 342/1.

(2) سورة الحج، الآية (41).

(3) صحيح ابن حبان، 201/2،و المستدرك على الصحيحين للحاكم، 180/4.

يكن لصاحبها في الآخرة من خَلاق، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم وإنْ كان لصاحبها ما يُجزَى به في الآخرة"[1].

ومن فائدة معرفة هذه السُّنَّة: بَذل الوُسع لطلب التمكين لدين الله، وكذلك تحقُّق الاستنهاض للأمة كلها وجمعها للوصول إلى ذلك التمكين، مع وجود الرقابة الذاتية للمحافظة على التمكين، بتجنُّب أسباب زواله.

وأيضاً :إعطاء الأمل، وذلك أنَّ ما تعيشه الأمة قد يراه كثير من الناس شيئاً كائناً ثابتاً، من المستحيل تغييره، وبمعرفة سنة الله تعالى في تمكين من أخذ بالأسباب يبتعد اليأس والقعود، فإنَّ "الأُمَّة المستضعفة ولو بلغت في الضعف ما بلغت لا ينبغي لها أنْ يستولي عليها الكسل عن طلب حقها والإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور، خصوصاً إذا كانت مظلومة، وأنَّ الأُمَّة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به لا يقوم لها أمر دينها ولا دنياها، ولا يكون لها إمامة فيه" أ.هـ[2].

والأمل يتمثل كذلك في عدم استمرار دول الاستكبار والضلال، بل لا بُدَّ لها من نهاية. لكن ذلك يحتاج إلى الإعداد والاجتهاد.

---

(1) ابن تيمية: الاستقامة، جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط/1، 1403هـ، 247/2. وانظر كذلك: مجموع الفتاوى، مرجع سابق، 146/28.

(2) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، تحقيق وضبط محمد زهري النجار، طبعة رئاسة الإفتاء السعودية، 1404هـ، 34/6.

المبحث الثالث: سُنَّة مآلات الأفعال

ممَّا قام عليه هذا الكون . بقدرة الله تعالى أنَّ كل فعل ينتج أثراً، ولو رأينا الأثر استدللنا به على المؤثر، وكما قال ذلك الأعرابي قديماً : "البعرة تدل على البعير، وأثر السير يدل على المسير، ليلٌ داج،وسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فِجاج، وبحار ذات أمواج،أفلا تَدُلُّ على اللطيف الخبير؟"[(1)].

قال تعالى: {وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[(2)]، فإنْ كان هذا الجزاء به في الآخرة، فإنَّ الدنيا ليست منفصلة عن الآخرة، فالصالحات التي يعملها الناس لها آثار مباشرة أو غير مباشرة يلمسونها في الدنيا من حيث ردود الأفعال الطيبة من الآخرين تجاهها، وكذلك التشجيع على عمل الخير، وإصلاح ذات البين، وغيرها. وكذلك من يعمل السُّوء يجد في المقابل نتيجة عمله ظاهرة.

وهذا ظاهر الارتباط بالسُّنَن الكونية، ففساد أحوال الناس وخرابها يكون نتيجة أعمالهم، قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، طبعة دار الفكر، 1401هـ، 59/1.

(2) سورة الصافات، الآية (39). وانظر: الحلبي، علي برهان الدين: السيرة الحلبية، دار المعرفة، بيروت، سنة 1400هـ، 320/1.

أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }[1]. ومن معاني الفساد: الخراب والهلاك[2].

وقال سبحانه: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ }[3]، فالمصائب والكوارث التي تنزل بالإنسان كثيراً ما تكون بسببٍ من تصرفاته الجائرة في الكون، ولعلّ من أسباب ذلك وبواعثه غرور الإنسان بعلمه ومعارفه لدرجة قد توصله إلى الاعتقاد بأنه يتحكم في الكون، ويغفل أنّ لهذا الكون سنناً ثابتة، وأنّ خالقه قادر عليه.

ولذا جاءت الآية التي تلي الآية السابقة في سورة الشورى لتؤكد هذا المعنى: {وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ }[4].

فإنْ كان الأمر كذلك من ترتُّب النتائجُ على المقدمات، وحصول الثمرات بناءً على الغرس، فإنّ هذا الاطراد مستمر في الكون، يقول سبحانه: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا }[5]، فليس يكفي بذر البذور ولكن لا بُدَّ من تخيُّر الأرض التي تُبذر

---

(1) سورة الروم، الآية (41).

(2) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد عبدالعليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، ط2، 1372هـ، 14/2.

(3) سورة الشورى، الآية (30).

(4) سورة الشورى، الآية (31).

(5) سورة النحل، الآية (58).

فيها هذه سنة كونية ثابتة في تأثر الشيء بالتربة التي ينبت فيها، ولذا يعتنون بدراسة التربة ومعرفة نسب الأملاح والحشرات والرطوبة وغيرها فيها قبل اختيارها لزراعة شيء معيَّن.

فمن أغفل هذه السُّنَّة وكان عشوائياً في حياته لم يبلغ مراده، بل تكون أحواله سيئة، وحياته نكداً لأنه أعرض عن هدي الله، قال سبحانه: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}(1). فضمن الحياة الطيبة في الدنيا لكل من عمل الطيبات لأنَّ نتيجة الخير خير، ثم ضمن لهم في الآخرة أجراً حسناً {بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} تأكيداً على مالآت الأفعال في الدنيا والآخرة.

وكل ذلك يرتبط أيضاً بكون الجزاء من جنس العمل {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}(2) وهذا في الدنيا بأن يثمر العمل الحسن حسنات في الدنيا، وقوله تعالى: {مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}(3)، وقول النبي ε: (بِرُّوا آباءكم تَبرّكم أبناؤكم، وعفُّوا تعفّ نساؤكم)(4) وكذلك مكافأة المحسن على إحسانه، فالرسول ε يقول: (مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا

(1) سورة النحل، الآية (97).

(2) سورة الرحمن، الآية (60).

(3) سورة النساء، الآية (123).

(4) الطبراني: المعجم الأوسط، برقم 1002، تحقيق طارق بن عوض الله محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين للنشر، القاهرة، 1415هـ، 299/1.

فكَافِئُوه ..)[1]. وأقلّ شيء أن يُشكر المحسِن ، وفي الحديث: (لا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ)[2].

ويكون الإحسان الأكبر في الآخرة: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}[3].

من كل ذلك تتضح لنا العلاقة الوثيقة بين سنن الله في الكون وبين المنهج الذي ارتضاه لعباده ليسيروا عليه.

فالأمَّة تدرك ارتباط الأثر بالمؤثر، والحال بالأعمال، فلا يمكن بعد ذلك أن تضطَرِب في العمل، أو أنْ تعمل عملاً خاطئاً لتصل به إلى نتائج صحيحة، بل تراجع نفسها لتعرف مواطن الخلل والقصور فتصلح المسار لتنهض.

وليحدث ذلك لا بُدَّ من دراسة الإمكانات والقدرات المتاحة الموظفة والمستثمرة حالياً أو التي يمكن توظيفها مستقبلاً، ودراسة التطلعات والطموحات المستقبلية (الأهداف البعيدة) من خلال تلك الإمكانات، ومن

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة برقم 1424. وانظر: صحيح ابن حبان، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م، 199/8. و المستدرك للحاكم، 572/1. والسنن الكبرى للبيهقي، 43/2.

(2) صحيح ابن حبان، 198/8. سنن أبي داود، 255/4. سنن الترمذي، 339/4. سنن البيهقي، 182/6. مسند أحمد، 295/2، 302/2.

(3) سورة يونس، الآية (26).

ثم السعي إلى التوفيق بين الأهداف البعيدة والقريبة بحيث يكمل بعضها بعضاً ولا يطغى جانب على جانب آخر"[1].

كما يرتبط بسنة مآلات الأفعال كذلك: أهمية المبادرة إلى تغيير التصرفات أو الخطوات أو الإجراءات ليتم حصول التغيير في الأوضاع. وهذا أمرٌ كوني معروف، إذا كان الشيء يسير سيراً معيَّناً ؛ فتم تغيير شيء مما يؤثر في سيره؛ فإنَّ السير سيتغير إمَّا سلباً أو إيجاباً .

وفي ذلك يقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[2]، أي: "لا يُغيِّر ما بقومٍ من الصحة والعافية حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر"[3].

وأورد السيوطي . رحمه الله . عن علي τ عن رسول الله ε: يقول الله: {وعِزَّتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي ما من أهل قرية ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما كرهته من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلاّ تحولت لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يُحبُّون من رحمتي، وما من أهل بيتٍ ولا قريةٍ ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما

(1) الصويان، أحمد بن عبد الرحمن: مقال بعنوان: "دراسة المستقبل.. مدخل تأصيلي"، منشور بمجلة البيان، العدد 86، سنة 1995م، ص 55.

(2) سورة الرعد، الآية (11).

(3) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، 292/9.

أحببت من طاعتي ثم تحولوا إلى ما كرهت من معصيتي إلاَّ تحوَّلت لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)[1].

فالتغيير المنشود إلى الأفضل لا يحدث إلاَّ بالأماني والآمال؛ وإنما بتغيير الأعمال، ولا يحدث ذلك إلاَّ بالعناية بتغيير النفوس بتزكيتها، فالفلاح يحصل بذلك: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}[2].

---

(1) السيوطي، جلال الدين: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، 1993م، 616/4.

(2) سورة الشمس، الآيات (7–10).

المبحث الرابع: الصراع بين الخير والشر والطيب والخبيث

اقتضت حكمته سبحانه أنْ يخلق الخير والشر، والحسن والسيِّئ، والنافع والضار لحكمٍ جليلة عظيمة، منها ذلك التوازن الذي سبق أنْ تكلَّمنا عنه، ومنها ابتلاء الأخيار بالأشرار، وأيضاً تمحيص المؤمنين وكشف معادنهم، ورفع درجات الصابرين المحتسبين منهم.

ولو تأمَّلنا نجد أنَّ الله سبحانه خلق آدم υ، وخلق إبليس، وخلق الماء، والزَّبد، وقد يعلو الزبدُ فوق الماء، وإنْ لم يكن فيه فائدة الماء: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ }[1].

فهو إذاً عُلوٌّ مؤقت ليس دائماً، وهو علو حِسي كوني لا يعني بالضرورة عُلواً في القدر والقيمة، وهذا أمر متكرِّر في كثير من أمور الدنيا، فقد يعلو إنسان ويرتفع بمالٍ أو بمنصبٍ أو جاه، ولكن قد يكون من السّفلة في أخلاقه. وهو نموذج يتكرَّر في كل بيئة: صورة اللئيم الصغير النَّفس، الذي يُؤتى المال فتطير نفسه به، حتى ما يطيق نفسه! ويروح يشعر أنَّ المال هو القيمة العليا في الحياة. القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار: أقدار النَّاس، وأقدار المعاني، وأقدار الحقائق. وأنَّه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب!. كما يروح يحسب أنَّ هذا المال إلهٌ قادر على كل شيء، لا يعجز عن فعل شيء!

(1) سورة الرعد، الآية (17).

حتى دفع الموت وتخليد الحياة ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه، إنْ كان هناك في نظره حساب وجزاء! ومن ثمَّ ينطلق في هوس بهذا المال يعده ويستلذ تعداده، وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم، ولمزهم وهمزهم، يعيبهم بلسانه، ويسخر منهم بحركاته، سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم، بالقول والإشارة،بالغمز واللَّمز، باللفتة الساخرة والحركة الهازئة! وهي صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان. والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفُّعه الأخلاقي"[(1)]. وكل ذلك يدفع إلى عدم الاغترار بالمظاهر أو الشكل، والتسرع بالحكم بناءً عليه. كما أنه يفيد في النظرة الصحيحة المتزنة للأشياء والأحداث من خلال الغوص في أعماقها والنظر في ما ورائها.

يقول الإمام ابن قتيبة . رحمه الله عن آية سورة الرعد المذكورة: "هذا مَثَلٌ ضربه الله للحق والباطل، يقول: الباطل وإنْ ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه، فإنَّ الله سيمحقه ويبطله، ويجعل العاقبة للحق وأهله، ومثل ذلك مطرٌ أسال الأودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً، أي: عالياً على الماء كما يعلو الباطل تارةً على الحق، وكذلك المعادن إذا دخلت الكير يُوقد عليها فيعلوها مثل زبد الماء، ثم قال: [فَأَمَّا الزَّبَدُ

(1) قطب، سيد: في ظلال القرآن، (تفسير سورة الهُمزة)، دار الشروق القاهرة، ط/1، سنة 1972م، ط/27، سنة 1998م، 6/3972.

فَيَذْهَبُ جُفَاءً }، أي: يلقيه الماء عنه فيتعلق بأصول الشجر وجنبات الوادي، وكذلك الفلّز يقذفه الكير، فهذا مثل الباطل و{وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ }، فهو مثل الحق"(1).

وذلك ارتباط كذلك بسُنَّة المداولة، حيث يتقلّب الأمر بين تفوّق وإخفاق، وهذا في أمور الكون مشاهد من علو شيء وسيادته على شيء آخر وغلبته عليه بحسب الأحوال والظروف، ولكن لا يستمر ذلك بل يتغيّر.

وكذلك الحال للخير مع الشر، ولأهل الإسلام مع غيرهم.. قال تعالى: {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ }(2).

قال عنها ابن كثير: "نُديل عليكم الأعداء تارةً، وإنْ كانت لكم العاقبة، لما لنا في ذلك من الحكمة"(3). قلت: وهي التمحيص، والصقل ومعرفة نعم الله والشكر عليها، والصبر عليها، والتعلّم من الأحداث بعد دراستها وأخذ العبرة. ولذا كان لا بُدَّ من "دراسة تاريخ الأمم وتجارب الشعوب والدول في قديم الدهر وحديثه، ففيها عظة وعبرة لكل معتبر، ولهذا قصّ الله تعالى لنا قصص الأمم الغابرة"(4).

---

(1) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن، مرجع سابق، ص 326.

(2) سورة آل عمران، الآية (140).

(3) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، 1408.

(4) الصويان، أحمد: دراسة المستقبل – مدخل تأصيلي (مقال سابق)، نفس الصفحة.

ولقد بيَّن القرآن الكريم أنَّ عاقبة الصراع تكون دائماً للمؤمنين مهما طال الطريق وعصف بهم طغيان المشركين: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}(1)، وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}(2).

ولكن يخطيء من يعتمد على المبشرات فقط بدون عمل، ولو تأملنا نجد أنَّ الله قال: {عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}، أي: الذين صلُح حالهم بالطاعات مع ربهم، ولا يكون الإنسان صالحاً إنْ كان سلبياً لا عمل له تجاه أمته، بل الصالح هنا هو الذي يَصلُحُ بصلاحه الناس، ولا يكون المؤمنون عباداً لله صالحين يرثون الأرض إلاّ إنْ التزموا بتوجيهات الله من التعاون على البر والتقوى ونبذ الفرقة، لأنه لا يجتمع فرقة وتنازع مع فوز وتمكين، بل العاقبة هي الفشل: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}(3).

والتزموا بالإعداد المطلوب للقوة، والقوة ليست سلاح الحرب فقط؛ وإنَّما في كل شيء بحسبه، وأهمها قوة العلم والأخذ بالسُّنَن الثابتة، فعندئذٍ تجتمع في الأمة أسباب النصر المعنوية والمادية التي خلقها الله عزّ وجلّ

(1) سورة القصص، الآية (5).

(2) سورة الأنبياء، الآية (105).

(3) سورة الأنفال، الآية (46).

من علم صحيح، وسلوكٍ مستقيم، وأخذ بالمقومات التي جعلها الله وسيلةً موصلة إلى نتائجها المرجوَّة، وإلاَّ فإنَّ مجرَّد الإيمان والالتزام بعقيدة أهل السنة والجماعة دون الأخذ بأسباب التمكين ومقوماته المادية ودون الالتزام بسنن الله الكونية الصارمة لا يضمن النصر ولا يكفل الظهور والتمكين في الأرض الذي وعد الله به عباده الصادقين"[1].

وهذا يؤكد لنا أنَّ الالتزام بالسُّنَن الكونية التي ذكرنا بعضاً منها تتحقق نتائجه بالالتزام بكل السُّنَن لأنها متعاضدة متكاملة: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[2].

(1) المصري، محمد عبد الهادي، أهل السنة والجماعة (مرجع سابق)، ص 52.

(2) سورة النور، الآية (55).

خـاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات. أحمده كثيراً أن يَسَّرَ إتمام هذا البحث، الذي أرجو أنْ ينفع الله به من يقرؤه. ونذكر في هذه الخاتمة مجموعة من أبرز النتائج والتوصيات لهذا البحث.

≅ أهم نتائج البحث:

[1] إنَّ السُّنن الكونية هي قوانين الله ونواميسه في هذا الكون. وهي منتظمة مطّردة شاملة منضبطة. ولذا وجب الاهتمام بها.

[2] هناك علاقة وثيقة بين سنن الله الكونية وبين سننه الشرعية، وإغفال هذه السُّنَن من قِبَل المؤمنين يُعدُّ ضلالاً.

[3] معرفة السُّنَن الكونية والتعامل معها بوعي يؤدّي إلى الوصول إلى الأهداف التي يسعى إليها الإنسان، أيّ إنسان، مسلماً كان أو غير مسلم.

[4] سنن الله في الكون كثيرة، منها:

[أ] سُنَّة التوازن:

توازن في كل جوانب الكون وما فيه، فكل شيء مخلوق بمقدار، وأيّ خطأ في تعامل الإنسان في الكون من هذه الناحية قد يؤدّي إلى اضطراب.

والأُمَّة لكي تنهض يجب أنْ تعلم أنَّ الله تعالى لن يسمح بطغيان الشر أو استمراره في الظلم بل يُنشِئ مدافعة له، وينبغي للأمة سلوك سبيل

المدافعة المناسبة، والاستفادة من هذه السُّنَّة الكونية بتسخير الكون لضبط الأمور ووضعها في نصابها.

وكذلك تعرف الأمة مقادير الأمور فترتبها حسب الأهمية تقديماً وتأخيراً، وموازنةً بين المصالح التي تسعى لتحقيقها، وبين المفاسد التي تسعى لاقتلاعها أو دفعها. وهذا هو فقه الموازنات والأولويات الذي يرتبط بهذه السُّنَّة.

كما أنَّها تنظر في سنة كونية لها صلة وثيقة بهذه السُّنَّة، وهي سنة التدرُّج التي تعني الوصول إلى المطلوب عبر خطوات أو دفعات بما يحقق فائدة الإتقان والسهولة في التطبيق، ثم في الفهم والقبول.

[ب]سُنَّة بقاء التمكين أو زواله:

التمكين الكوني قد يحصل لكل كائن وسط الكائنات التي يعيش معها، وهو للإنسان يختلف بين محدود ومتسع، وهذا التمكين يتحقق بالأخذ بسُنَّة الأسباب، الأسباب الكونية والأسباب الشرعية. كما أنه كذلك قد يزول ويتلاشى إذا اختفت الأسباب التي حصل بها. وهذا في حق المؤمنين دعوة للتمسك بالأسباب وتجويد الأخذ بها، ثم الاستعداد للمحافظة على التمكين. وهو في حق الكافرين شيء طبيعي لأنهم سلكوا الطريق الكوني الصحيح. لكن الأمل في زواله عنهم ما داموا قد طغوا ونازعوا الله في ملكه؛ سيكون حالهم كمن سبقهم.

[ج] سنة مآلات الأفعال:

لكل فعل أثر، حسناً كان أو سيئاً، بحسب نوع الفعل وطريقته. ولذا فإنّ الفعل يدلّ على الفاعل، والمسبَّب يدلّ على السببوكل من عمِلَ وصل إذا سلك المقومات الصحيحة، ولذا فالأمة لابُدَّأنْ تفهم هذه السُّنَّة الكونية فتجتهد وتعبئ طاقاتها على علم ثم تعمل مستعينة بالله، لتصل إلى الرفعة التي تطلبها. فلا مكان للآمال والأمنيات بلا عمل واجتهاد.

[د] حتمية الصراع:

سيظل الخير والشر يلتقيان فيصطرعان، وهذا من حكمة الله تعالى. ولعله من التوازن أنْ يكون هناك ملائكة وشياطين، ونور وظلمة، وماء ونار، وبرد وحر، وزهور وأشواك.. إلخ.

والمسلمون يفهمون أنَّ الضدّين لا يجتمعان، فلا بد من صراع، لكن المطلوب استثمار ذلك لأجل النهوض، أخذاً بأسباب النصر المادية والشرعية الإيمانية، والثقة في كون العاقبة للمتقين لا تمنع من إعداد العدة المطلوبة لأن الله أمر بذلك.

وهنا يظهر تكامل وتلاقي السُّنن الكونية: أخذ بالأسباب، توازن، صراع وتدافع، ثمرات الأعمال ومآلاتها.

≅ أهم التوصيات:

[1] إجراء دراسات متكاملة عن السُّنَن الربَّانية التي تجمع بين السُّنَن الكونية وسنن الله في الأمم والجماعات كما ذكرها القرآن. وتوجيه تلك الدراسات لخدمة قضايا مثل:

- الأقليات المسلمة.
- علاج الأزمات.
- وحدة الأمة.
- التأثير في غير المسلمين.
- الحفاظ على الهُوِيَّة.

[2] إبراز عوامل النهضة من خلال السُّنن الكونية، وإدخاله في المناهج الدراسية في المدارس والجامعات، على أنْ يكون بنظرة إيمانية تناسب كل تخصص.

[3] دعوة غير المسلمين من خلال الحديث عن آيات الله وسننه في الكون، بحسبانها لغة مشتركة لاسيمّا بين العلماء، مع ربط ذلك بمنهج إصلاح المجتمعات والرقي بها خلقياً.

[4] على قادة الجماعات الإسلامية، والمفكرين، والعلماء، والدُّعاة، والزعماء، التأمُّل في هذه السُّنَن الكونية ومعرفة أثرها في عملية النهوض بالأمة، وسيجدون أنه لابُدَّ من التعاون والترفع عن سفاسف الأمور والإغراق في الجزئيات والشكليات، وسدّ أبواب الفرقة والتشرذم. وهذا ما نوصيهم به: أن اتقوا الله.

[5] التركيز على موضوع: (الأُمة الواحدة) التي يدخل فيها كل المسلمين، لا تحدّهم حدود سياسية، يتطلعون إلى قائد ربَّاني يجمعهم تحت راية ليست قومية، ولا وطنية، ولا عرقية،ولا حزبية، وإنَّما ربَّانية إسلامية.

وما ذلك على الله بعزيز، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

[1] ابن أبي شيبة: مصنف ابن أبي شيبة، مكتبة الرشد، الرياض، ط/1، 1409هـ.

[2] أحمد: مسند الإمام أحمد.

[3] أمحزون، د. محمد: مقال بعنوان: "العلم بالسُّنَن الربانية"، مجلة البيان، العدد 115، يوليو 1997م.

[4] البخاري: صحيح البخاري.

[5] البوطي، محمد سعيد رمضان: فقه السيرة، دار الفكر، دمشق، ط/7، 1978م.

[6] البيهقي: السنن الكبرى.

[7] الترمذي: سنن الترمذي.

[8] ابن تيمية: الاستقامة، جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط/1، 1403هـ.

[9] ابن تيمية: مجموع الفتاوى، نشر وتوزيع دار الكلمة الطيبة، اعتنى بها: مروان كجك، ط/1، 1995م.

[10] ابن حبان: صحيح ابن حبان، تحقيق شُعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/2، 1993م.

[11] الحلبي، علي برهان الدين: السيرة الحلبية، دار المعرفة، بيروت، 1400هـ.

[12] الحنفي، ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط/4، 1391هـ.

[13] أبو داود: سنن أبي داود، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

[14] رزق الله، د. مهدي: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، دار إمام الدعوة للنشر والتوزيع، الرياض، ط/2، 1424هـ.

[15] الزرعي، محمد بن أبي بكر أيوب: مدارج السالكين.

[16] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، تحقيق وضبط محمد زهري النجار، طبعة رئاسة الإفتاء السعودية، 1404هـ.

[17] السيوطي، جلال الدين: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، 1993م.

[18] شحاتة، د. عبد الله: آيات الله في الكون، نشر نهضة مصر، 2001م.

[19] الشوكاني: فتح القدير، دار الفكر، بيروت، 1983م.

[20] الصويان، أحمد بن عبد الرحمن: مقال بعنوان: "دراسة المستقبل.. مدخل تأصيلي"، منشور بمجلة البيان، العدد 86، 1995م.

[21] الطبراني: المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين للنشر، القاهرة، 1415هـ.

[22] العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.

[23] ابن قتيبة: مشكل القرآن، تحقيق سيد صقر.

[24] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، ط/2، 1372هـ.

[25] قطب، سيد: في ظلال القرآن، تفسير سورة الهُمزة)، دار الشروق القاهرة، ط/1، سنة 1972م، ط/27، سنة 1998م.

[26] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، 1981م.

[27] كنعان، د. أحمد محمد: أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في خلقه.

[28] المصري، محمد عبد الهادي: أهل السنة والجماعة.. معالم الانطلاقة الكبرى، دار طيبة، الرياض، ط/4، 1988م.

[29] النجار، أ.د. زغلول: محاضرة: "الإنسان والكون"، ضمن محاضرات الموسم الثقافي لعام 72–1973م، إصدار حكومة أبو ظبي.

[30] النيسابوري، الحاكم: المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 1990م.